Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 53, No. 7, 2026, 9763

Deanship of Scientific Research

The Pragmatics of Sībawayhi's Book in the Studies of the Arabists

Abdelmonem Gedamy [1], ***Nasser Al-Horais**** [2]

[1]Department of Linguistics, Semitic and Oriental Studies, Faculty of Dar El-Uloom- Minia University, Minia, Egypt.

[2]Department of Arabic Language and Literature, College of Languages and Humanities, Qassim University, Saudi Arabia

Received: 18/11/2024
Revised: 26/12/2024
Accepted: 9/2/2025
Published online: 1/2/2026

* *Corresponding author:*
nasser-alhorais@qu.edu.sa

Citation: Gedamy, A., & Al-Horais, N. (2026). The Pragmatics of Sībawayhi's Book in the Studies of the Arabists. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *53*(7), 9763. https://doi.org/10.35516/Hum.2026.9763

Abstract

Objectives: This paper aims to present and analyze a selection of studies by a group of Arabists published in Europe, utilizing modern pragmatic theory as analytical tools to approach works of Sībawayhi in this regard.

Methods: The paper seeks to uncover the underlying philosophy of these studies and analyze their outcomes within a critical analytical framework.

Results: One of the significant findings, through examining pragmatic analyses by Arabists of Sībawayhi's work, is their view of the Arabic linguistic tradition represents a crucial chapter in the history of global linguistic thought. Modern linguistics proves essential in understanding many aspects of Arabic tradition. From Arabists' approaches to Sībawayhi's work, it becomes evident that Sībawayhi possessed concepts and analyses that reflect his awareness of context importance in linguistic analysis. For example, in Carter's approach, he draws parallels between Sībawayh's concepts and Gricean pragmatics, highlighting that, according to Sībawayhi, speaker is not only participant in a cooperative activity with a receiver in a realistic context; rather, the context itself can become an active component in grammatical structure of speech, which contributes to language learning and teaching in real-life usage and situations.

Conclusions: These studies underscore originality of Sībawayhi's linguistic contributions, which are not only groundbreaking in field of Arabic linguistics but also span entire history of linguistics up to modern era. This is reflected in the pragmatics of Sībawayhi's analyses and comparisons between his concepts and those of Grice and Leech's integrative framework.

Keywords: language, learning, teaching , Arabic linguistic tradition, Sībawayhi, pragmatics, Arabists.

© 2026 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تداولية كتاب سيبويه في دراسات المستعربين

عبدالمنعم السيد جدامي [1]، ***ناصر فرحان الحريّص*** [2*]

[1]قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، المنيا، مصر.

[2]قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات والعلوم الإنسانية، جامعة القصيم، بريدة، المملكة العربية السعودية.

ملخّص

الأهداف: يهدف هذا البحث إلى عرض وتحليل عدد من دراسات مجموعة من المستعربين المنشورة في أوروبا، والتي اتخذت من النظرية التداولية الحديثة وسائل وأدوات تحليلية لمقاربة كتاب سيبويه في هذا الجانب.

المنهجية: يحاول البحث أن يصل إلى الفلسفة القائمة عليها تلك الدراسات، وتحليل نتائجها في إطار المنهج النقدي التحليلي.

النتائج: من النتائج المهمة أن نظرتهم للتراث اللغوي العربي فصل مهم من تاريخ الفكر اللغوي العالمي، وأن اللسانيات الحديثة مهمة في فهم كثير من جوانب التراث العربي. ويتضح من مقاربات المستعربين للكتاب أن لدى سيبويه مفاهيم وتحليلات تؤكد وعيه بأهمية السياق في التحليل اللغوي. ففي مقاربة كارتر، مثلا، وجدناه يقارن بين مفاهيم سيبويه ومفاهيم جرايس التداولية، وأكد من خلالها أن المتكلم عند سيبويه ليس وحده المشارك في نشاط تعاوني مع متلقٍ في سياق واقعي، وإنما السياق نفسه يمكن أن يصبح المكون النشط في الصيغة النحوية للكلام؛ مما يسهم في تعلم وتعليم اللغة في الاستعمال والمواقف الحية.

الخلاصة: إن هذه الدراسات تؤكد أصالة إنجازات سيبويه اللغوية التي لا تعد فذة في اللسانيات العربية فحسب؛ بل على امتداد تاريخ اللسانيات حتى العصر الحديث، ويتضح ذلك، جليًا، في تداولية تحليلات سيبويه والمقارنة بينها وبين مفاهيم جرايس، والمنهج التكاملي لليتش.

الكلمات الدالة: اللغة، تعلم، تعليم، االتراث اللغوي العربي، سيبويه، تداولية، المستعربون.

1. مقدمة

يروم هذا البحث عرض وتحليل دراسات نشرت في أوروبا من باحثين أوروبيين كبار عرضوا في درسوا جوانب تداولية في كتاب سيبويه. واختيارنا لهذه الدراسات لعدد من الأسباب، لعل أهمها هو (أ) أن الجامعات الغربية هي الأكثر موضوعية من الناحية العلمية، وهذا تؤكده التصنيفات العالمية للجامعات العالمية، و(ب) أيضًا، هذه الدراسات تأتي بنظرة جديدة، فهي ليست لعربٍ حتى يتهموا بهوى العصبية، فيدعوا ريادة التراث العربي اللغوي؛ وإنما هذه الدراسات لمستعربين لغويين، درسوا العربية وتراثها اللغوي والذاتية بعيدة عنهم، فلا تعصب، ولا هوى لديهم يجعلهم يسقطون على التراث العربي ما ليس فيه. ونحن لا نبغي إلا الموضوعية العلمية ليس غير. والبحث الحالي عندما يعرض هذه الرؤى والتصورات ويحللها؛ فلأجل أن يضيف للمهتم بالتراث اللغوي العربي جديدًا يفاد منه، وأن يبحث، في الآن نفسه، في المنطلقات التي تجعل هؤلاء الباحثين يقرؤون التراث العربي في ضوء اللسانيات الحديثة.

وسنعرض هذه الدراسات وفق تاريخ نشرها، بدءًا بدراسات لارشي، ثم دراسة مايكل كارتر، ثم دراسة تلميذته ماروجي. وجميع هذه الدراسات حللت جانبًا تداوليًا في كتاب سيبويه. ولعل القارئ الكريم يسأل عن جدوى هذه الدراسات لتراث سيبويه. نقول نحسب أن هذه الدراسات سوف تفيد بنظرتها الجديدة إلى تراثنا اللغوي العربي في كيفية تناولها وتحليله له، كما أنها تمدنا بمعرفة عن آلية تناول الباحثين في الجامعات الغربية للتراث اللغوي العربي، وتكشف لنا عن الأسباب التي تقف خلف ذلك.

وفي واقع الأمر، فإنه أصبح منظورًا إلى التراث اللغوي العربي على أنه فصل مهم من تاريخ الفكر اللغوي في العالم، يقول المستشرق الفرنسي بواس وزميلاه في كتابهم (The Arabic Linguistic tradition) (التراث اللغوي العربي): "المادة المحتوية على اللسانيات العربية بلا جدال تمثّل تراثًا يعتبر واحدًا من التعاليم اللغوية العظيمة في العالم، ومن ثم فمن الواضح أن الوصف المتمثل بالمساحة المحدودة للغاية لوصف النحويين العرب عند المؤرخين الأساسيين للفكر اللغوي (مثل روبنز في كتابه 1967) لا يتناسب تمامًا مع الأهمية الحقيقية لهذا التراث، فمن ناحية إذا ما كان اللغويون ومؤرخو النظريات النحوية، وجمهور المهتمين بالثقافة الإسلامية؛ لم يجعلوه محل تقدير واهتمام واضح؛ بسبب فشل المستعربين في فهمهم له. لقد كان واجبًا على هؤلاء المستعربين من أجل هذا التراث أن يهتموا بمعرفة اللغة في أدبياتها الخاصة، وينظر إلى هذه النصوص على اعتبارها معالجات علمية مقننة؛ ومن ثم فإن هذا التراث معقول، وليس ركامًا يستعصي على الفهم، وكان عليهم أن يتحملوا صعوبة الحصول على المفاهيم اللغوية؛ لفهم هذه المصادر قبل الادعاء بأنهم على دراية بتصورات النحاة العرب (Bohas, .et al. 1990, p.vii. p.vii.) . هذا الفهم وهذا التقدير مهم حتى لا نكذب من يدَّعي بأن سيبويه يمكن أن يكون مادة نقاش؛ ذلك أنه واحد من النحاة الذين تمكنوا بنجاح من اكتشاف توازٍ ما بين المكونات الشكلية والوظيفية للكلام البشري (Marogy, A, 2010. 47). وكما تقول ماروجي: إن اللسانيات الحديثة مستعان بها أداةً للتحليل هنا "لتوضيح منهج سيبويه في تحليله للعربية... وليس لدراسة مقارنة ما بين اللسانيات العربية واللسانيات الحديثة... هدفي هو تحديد مكان تقاطع التفكير اللغوي لسيبويه مع اللسانيات الحديثة (ibid 47).

إن هذه الأقوال لا نتخذ منها ذريعة في إضفاء أو إسقاط الحداثة على التراث العربي؛ وإنما لأجل أن نعرف أن التراث اللغوي العربي له مكانته، وأن اللسانيات الحديثة مهمة في فهم هذا المكانة، وهذا هدفنا، ولا نريد إسقاط نظرية حديثة على التراث، على الرغم من أنه ثبت لدى باحثين كبار "وظيفية التنظير التراثي للدلالة من حيث المفاهيم الأساس، ومن حيث المنهج، ومن حيث المقاربة..." (المتوكل، أ. 2006، ص 211). وقد يرى بعض الباحثين أن في هذا القول مبالغة، ولكن في الحقيقة هذا ما قاله المستعربون في هذا الشأن، ويؤكدون وجود تحليلات تداولية عند العلماء العرب، وهذه الدراسات جاءت بأقلام مستعربين لهم مكانتهم داخل الدراسات العربية في الجامعات الغربية، وفي طليعة هؤلاء الفرنسي بيير لارشي، والبريطاني مايكل كارتر، وسنتناول ذلك بالتفصيل في المباحث الآتية.

2. بيير لارشي وتداولية عربية في العصور الوسطى قبل التداولية الحديثة

كانت رسالة لارشي للدكتوراة (الحلقة الثالثة بجامعة باريس [3]) بعنوان: Information et performance en science arapo- Islamique du) (langue، "الخبر والإنشاء في علم اللغة العربي الإسلامي"، وانتهى منها في 1980. لقد كان من أوائل من حلل التراث العربي من خلال اللسانيات التداولية، وكان يقرر في مقاله الذي نشره في 1998، أن تداولية قبل التداولية؛ هي تداولية عربية إسلامية في العصور الوسطى. ويذكر أنه يمكن استعمال التداولية المعاصرة كما هي اليوم بطريقة استكشافية لإبراز الملمح التداولي في نظريات للغة تنتمي إلى أزمنة وأماكن أخرى، غير زمننا وغير مكاننا، دون أن ننزلق في ادعاء الريادة المغلوطة (Larcher, P.1998: P 101)؛ ويذكر أنه سيبين في عمله أن بعدًا تداوليًا مشتركًا يجمع/ يحتوي طريقًا قويًا وأصيلًا بين الاختصاصات المختلفة التي تعالج اللغة في نطاق الحضارة الإسلامية في مرحلة زمنية يمكن تسميتها بالقرون الوسطى (من القرن الثامن إلى الثامن عشر الميلادي)، ونعني بذلك علوم (النحو والبلاغة)، أو تلك التي تعتبرها من مقدماتها مثل (علم الكلام وعلم الفقه).

ويذكر لارشي أن مقولة (الإنشاء)، التي يراها متأخرة تاريخيًا (القرن الثالث عشر الميلادي)، هي النظير العربي لما يسميه أوستن صيغة إنجازية (performatif)، أو فعل متضمن في القول"act illocutoire" ، وتلك من أكثر المفاهيم مدعاة للدهشة والإثارة (Ibid.,p. 101).

وفي بحث آخر يكتب تحت عنوان *الإنشاء والنحو، نحو تداولية متكاملة/ مندمجة في النحو*، ويحلل من خلاله تصورات النحاة العرب لتركيب النداء،

يخلص إلى أن الجديد هنا دون شك؛ هو فكرة كون أداة النداء بديلًا لتركيب من فعل، الفكرة التي أجمع عليها النحاة من سيبويه، على الرغم من أن الظواهر لم تكن مثبتة بل استثناء في إطار تحول منهجي لنوع منطقي. وينتهي إلى أنه من خلال مجموع الملاحظات التي عرضها نستطيع أن نصل إلى إنجاز نظرية تداولية واقعية ذات صلة بفئة الإنشاء (Larcher, p. 1992 A, p. P371). وفي تصوره لتحليل النحاة العرب لـ(فعلتُ) يفصح عن الآتي:

1- الكلام هو كل هذه الأقوال المحتوية على فعل المتكلمين: فمعيار الكلام إذًا هو دلالي- تداولي قبل أن يكون هو نفسه شكليًا.

2- فعل المتكلمين يقدم من خلال (فعلتُ) الإنجازية، وهي حقًا جملة، لكنها جملة تستعمل فيها الشكلية الموجودة عند سيرل في بحثه (,1969 p.31) حيث القوة الإنجازية "Force illacutoire" ، ومحتوى إخباري"contenu propositionnel"، يقدم القوة الإنجازية، وليس المحتوى الإخباري (,.Ibid p. 379-380).

وفي بحث آخر للارشي حول الأداة (لكن) رؤية من خلال رضي الدين الاستراباذي، يخلص إلى مجموعة من النتائج، ومنها:

1- من الواضح أن رضي الدين الاستراباذي لم يكن كأي مؤلفٍ آخر، فلم يكن مقدمة لأي سلف؛ وإنما كان مقدمة لطريقة عامة وليس له معنى إلا كونه يجري بين تقليدين، واحد منهما أجنبي.

2- يذكر أنه لا يؤمن بالصدفة عندما يجتمع في تقليدين، درسان مختلفان لموضوعين توأمين...، بمعنى آخر مقولة الإنشاء ليست متعددة التخصصات فحسب؛ بل هي أيضًا متعددة المناهج، وبملمح تداولي عبرت إلى علم اللغة في العالم الإسلامي.

3- يرى في معالجة (لكن) عند النحاة العرب؛ والوصف الدلالي المعطى عند الرضي في منافسة مع الآخرين، وفيه مفهوم الاستدراك يعتبر تصحيحًا وقائيًا، لم يكن موجودًا في كتب المرحلة الأقدم في التراث الإسلامي، ولم تكن حتى في كتب مرحلة ما بعد الكلاسيكية في تاريخ الفكر الإسلامي (,Larcher p.1992 B. p. 17-18).

كما يذكر أن الإنشاء (مقابل الخبر) يشغل مكانًا متواضعًا كتصنيف بسيط للكلام مؤسس في تاريخ متأخر، ولهذه الفئة تاريخ طويل ومعقد بشكل متزامن وترمز إلى تنظيم وتفاعل تخصصات مختلفة، وكذلك هيمنة الاتجاه التداولي في تحليلها (**Larcher, P. 2007: p.361**).

وهذه الخلاصة تمثل رأيه في الإنشاء، نختلف في بعضها، ونتفق في بعضها الآخر، هذا التصور بدأ عند لارشي منذ 1980، مع رسالته للدكتوراة، وربما كان مصدر إلهام الآخرين في دراسة التداولية في التراث العربي.

قد يسأل سائل لماذا عرضنا لتصور لارشي وهو لم يتعرض لسيبويه بشكل عميق كما تعمق في تحليله للنحاة المتأخرين؟ نقول: إن لارشي كان من أوائل المستعربين الذين تعمقوا في قضية وجود فكر تداولي في التراث العربي، فقد كانت رسالته في الدكتوراه مكرسة لهذا الموضوع، وكانت كما ذكرنا في 1980، ولهذه الأسباب كان لا بد من عرض بعض آرائه.

3. مايكل كارتر

يُعد كارتر من أكبر المستعربين المهتمين بالتراث اللغوي العربي، ويرى أن سيبويه قدم نوعًا من التحليل البنيوي لم يكن معروفًا عند الغرب حتى القرن العشرين؛ فقد عالج اللغةَ على اعتبارها صيغة من السلوك الاجتماعي (**Carter, M, G. 1973: p.149**). وفي هذا الصدد، يذهب إلى أن منهج سيبويه يقوم على أربعة أسس، هي (**Carter, M, G. 2004: p. 57**):

1- التشديد على الدور التداولي في السياق الذي يجمع المتكلم والسامع.

2- الدعوة إلى تحليل التفسيرات النفسية لظاهرة اللغة.

3- التركيز على الطبيعة الطولية للكلام في الزمن الواقعي.

4- النظر إلى أن الكلام صيغة من التفاعل الاجتماعي.

وقد خصص كارتر بحثا بعنوان: (التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية)، درس في جزء كبير منه تداولية تحليل سيبويه. يقول بعد أن ذكر تعريف التداولية أن قراء (الكتاب) سيجدون جميع تلك الأفكار مألوفة لديهم جدًا (Carter, M, G.2007: p. 28).

ويفصل زعمه هذا فيقول: إن سيبويه كجرايس شديد الاهتمام بدور المخاطب في الحوار، وبملاحظته أن كثيرًا من المواقف اللغوية يؤثر فيها المخاطب في خيارات المتكلم، ومن ذلك ما قاله سيبويه: "واعلم أنه قبيح أن تقول مررت برجلٍ لا فارسٍ ولا شجاعٍ، ومثل ذلك هذا زيدٌ لا فارسًا لا يحسن حتى تقول لا فارسًا ولا شجاعًا؛ وذلك أنه جواب لمن قال أو لمن تجعله ممن قال أبرجلٍ شجاع مررت أم بفارسٍ" (Ibid., p. 2 9).

ويشير كارتر إلى وعي سيبويه بلغة الجسد، وذلك حين يصف أن رؤية صورة شخص غير معروف تكون علامة على معرفة الشخص، مدللًا على ذلك بنص لسيبويه ورد في (هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرًا، ويكون المبني عليه مظهرًا): "وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية ذلك على معرفة الشخص فقلت عبد الله وربي كأنك قلت ذاك عبد الله أو هذا عبدالله أو سمعت صوتًا فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت زيد وربي أو مسست جسدًا أو شممت ريحًا، فقلت زيدًا أو المسك، أو ذقت طعامًا، فقلت العسل، ولو حدثت عن شمائل رجلٍ فصار آية لك على معرفته، لقلت عبد الله كأن رجلًا قال مررت برجل راحم المساكين بار بوالديه فقلت فلان والله". (سيبويه، ط بولاق، ج1، ص279)

وقد صرح سيبويه بأمثلة كثيرة من هذا الشأن، ومن ذلك ما جاء في باب (ما ينتصب من الأسماء التي أخذت من الأفعال انتصاب الفعل استفهمت أو لم تستفهم). يقول سيبويه: "وذلك قولك: أقائماً وقد قعد الناس، وأقاعداً وقد سار الركب. وكذلك إن أردت هذا المعنى ولم تستفهم تقول: قاعدًا علم الله، وقد سار الركب، وقائمًا قد علم الله وقد قعد الناس. وذلك أنه رأى رجلًا في حال قيام أو حال قعود، فأراد أن ينبهه، فكأنه لفظ بقوله: أتقوم قائماً وأتقعد قاعداً، ولكنه حذف استغناء بما يرى من الحال وصار الاسم بدلاً من اللفظ بالفعل؛ فجرى مجرى المصدر في هذا الموضع. ومثل ذلك: عائذاً بالله من شرها، كأنه رأى شيئاً يتقى فصار عند نفسه في حال استعاذة حتى صار بمنزلة الذي رآه في حال قيام وقعود؛ لأنه يرى نفسه في تلك الحال فقال: عائذاً بالله، كأنه قال: أعوذ بالله عائذاً بالله، ولكنه حذف الفعل؛ لأنه بدل من قوله: أعوذ بالله، فصار هذا يجري ها هنا مجرى عياذاً بالله. ومنهم من يقول: عائذ بالله من شر فلان. وإذا ذكرت شيئاً من هذا الباب فالفعل متصل في حال ذكرك وأنت تعمل في تثبيته لك أو لغيرك في حال ذكرك إياه...". (سيبويه، ط بولاق، ج 1، ص 171)

هنا استعان سيبويه بقرائن حالية في تفسيره وتحليله للتراكيب، فاعتمد سياق الحال والحركة الجسدية وعناصر الموقف المستمدة من الحواس في تحليله للتراكيب النحوية، ومن ثم تجسدت علاقة قوية بين حركة الجسد ومبنى التركيب النحوي. والحقيقة أن أمثلة كثيرة من هذا المضمار ترد في كتاب سيبويه.

والحقيقة ربط الكلام بكل ما ذكره سيبويه من آيات/ دلائل لوعي يؤكد وعيه باستعمال اللغة بدور هذه الدلائل في فهم الكلام، وهذه إشارات تربط الكلام بسياقه المقامي، وفكرة التسييق (Contextualization) فكرة أساسية عند التداوليين. ويبدو من تحليل سيبويه في النص السابق أنه يرى الكلام مؤلفًا من عدد من العناصر؛ لغوية، وأخرى من السياق المقامي، قد نراها، أو نسمعها، أو نشمها، أو نذوقها، كل هذا في منهجه أجزاء من العملية الكلامية. وحديثًا حدد بعض الباحثين السياق في ثلاثة أنواع، هي كالآتي:

1- السياق المقامي (Situational Context) وهو ما يعرفه المتكلمون عمّا يمكن لهم أن يروه حولهم.
2- سياق الخلفية المعرفية (Background Knowledge Context)، وهو ما يعرفونه عن أنفسهم وعن العالم.
3- سياق النص المصاحب (Co-textual Context)، وهو ما يعرفونه عما يقولونه (Cutting, J. 2002: p. 4-8..)

ويمثل (Cutting) لهذه الأنواع من السياق، فيقول إن السياق المقامي يمثله الفصل (في حالة التدريس) الذي من المحتمل المحاضر والتلميذ يشيران فيه إلى السبورة، أو إلى كتاب تمرين هنا أو هناك، وبدون هذا المقام المحيط يكون الكلام لا معنى له، أما سياق الخلفية المعرفية، وهو -حسبه- إما أن يكون المعرفة الثقافية العامة التي يحملها معظم الناس في عقولهم حول مجالات الحياة، أو المعرفة الشخصية، وهي المعرفة الخاصة بتاريخ المتكلمين أنفسهم. أما النوع الأخير فهو تحته نفهم المفاهيم الآتية: الترابط النحوي، والمرجعيات الداخلية (داخل النص)، والاستبدال والحذف، والترابط المعجمي (Ibid., p. 4-8). وإذا ما قارنا هذا الفهم الحديث بفهم وتحليل سيبويه سنجد البون غير كبير.

ويوضح كارتر دور السياق عند سيبويه عاقدًا مقارنة بينه وبين جرايس؛ مؤكدًا رغبة كليهما في تقديم المادة اللغوية في صورة/ شكل مجموعة أقوال في مقام محدد (Carter, M, G. 2007: P. 30.)، ويذكر أمثلة من عند سيبويه، وفيها قول سيبويه: "ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره أن ترى الرجل قد قدم من سفر فتقول خيرَ مقدم، أو يكون الرجل رأيت فيما يرى النائم كذا وكذا، فتقول خيرًا، وما سَرَّ، وخيرًا لنا، وشرًا لعدونا، وإن شئت قلت: خيرُ مقدَمٍ وخيرٌ لنا وشر لعدونا" (Auer, P. 1992: P. 21.).

وعملية تسييق اللغة تسهم في تطور تحليلها في اللسانيات، فقد أصبحت موصوفة من خلال جومبيرز وآخرين بأنها تشتمل كل أنشطة المشاركة في الحديث، أي الأنشطة التي تجعل الأمر وثيق الصلة، أو تحفظه، أو تنقحه، أو تلغيه..، أي مظهر من مظاهر السياق يكون بدوره مسؤولًا عن تفسير كلام ما في مكان حدوثه الخاص (Ibid., p.35).، وقد أصبح مفهوم التسييق في اللسانيات متعلقًا بالتفاعل اللفظي ومظاهر السلوك اللفظي وغير اللفظي، مثل التنوع اللغوي، والتطريز، والإشارات الجسيمة وغيرها.

وحتي نفصل الموضوع أكثر نرجع إلى جومبيرز (Gumperz, J.) الذي يستخدم مصطلح (Contextualization) للإشارة إلى استخدام المتحدثين والمستمعين للعلامات اللفظية وغير اللفظية لربط ما يقال في أي وقت، وفي أي مكان بالمعرفة المكتسبة من خلال التجربة السابقة على المشاركة الحوارية، وتعميم المقصود. كما يجب فهم التسييق بالرجوع إلى نظرية التفسير التي تقوم - حسب جومبيرز- على الافتراضات الأساسية الآتية:

1- التفسير الموجود في أي بيان، وهذه الموضوعات معروفة نسبيًا في أدبيات تحليل الخطاب والتفاعل وتحليل المحادثة، فمن وجهة نظره يجب أن يساعدنا التحليل على إظهار أن المعرفة النحوية، ومعرفة استعمال اللغة، والمفاهيم البلاغية- تدخل في إنتاج التقابلات اللفظية. وفي تطوير منهج لتحليل المحادثة يشرح العمليات التفاعلية التي تكمن وراء إدراك الإشارات الاتصالية، وتأثيرها في الفهم والإقناع بشكل كبير.

2- يشير جومبيرز في هذا العنصر إلى استنتاج إسبربر وولسون (1986) وليفنسون (1983) ما يخص الافتراضات المسبقة، التي تتضمن تقييمات لتفسير المستمع لما يحاول المتحدث إيصاله بشكل تقريبي بمصطلحات إنجازية تقريبًا، وهذه الافتراضات- حسب جومبيرز- يمكن أن تكون متحققة في الافتراضات الخاصة بالخلفية (Background Assumptions).

3- يشير جومبيرز في هذه النقطة إلى أنه على الرغم من الافتراضات الخاصة بالخلفية تعتمد على معرفة العالم الخارجي، إلا أنه في أي محادثة واحدة يتم إعادة تفسير هذه المعرفة كجزء من عملية الحوار، بحيث يتم بناء الحوار تفاعليًا، ومن ثم اجتماعيًا، بمعنى آخر تكون تفسيرات الكلام مقيدة بيئيًا، وبالنظر إلى التسلسل الزمني وإدارة المحادثة، وتفاوض المعنى، كما أنه يرى أن التسلسل الزمني هو بطبيعته عملية تفاعلية، وتتم بالتعاون. (Gumperz, J. 1992: p. 230- 231)

ويرى جومبيرز أن التسييق يعتمد على إشارات (Cues) تعمل بشكل أساسي على المستويات الآتية من إنتاج الكلام:

1- الظواهر التطريزية، وتشمل التنغيم والنبر والسجل اللغوي(Register).

2- العلامات المصاحبة للأداء الكلامي، كالوقفة، والتردد، والتزامن الحواري، ونبرة الصوت، ودرجته، فهذه العلامات تؤدي دورًا مهمًا في التأثير في إدراك المشاركين للتماسك على مستوى الخطاب، مما يؤثر في تفسير الكلام بما هو معروف.

3- اختيار الشفرة (Code Choice) المناسبة من بين الخيارات الموجودة في ذخيرة اللغة المتاحة، مثل التبديل بين الأساليب اللغوية.

4- اختيار الصيغ اللغوية أو التعبيرات المسكوكة، مثل ما هو روتيني كما في الافتتاحية أو الخاتمة، أو التعبيرات المجازية.

ومن ثم، فإن الإشارات السياقية تعمل على تسليط الضوء على بعض السلاسل الصوتية أو اللغوية، وجعلها بارزة مقارنة بوحدات مماثلة أخرى، كما أنها تعمل في إطار علائقي. (Ibid., p. 231-232)

يمكن فهم كلام جومبيرز على أنه خطوة مهمة في تطوير ما قد بدأه مع جين جومبيرز- كوك في بحث نشر في (1978م) حول مفهوم التسييق باعتباره مفهومًا نشطًا اجتماعيًا للسياق، بمعنى أن السياق يتعامل- حسب جومبيرز- مع العمليات الإدراكية التي يتم من خلالها المعرفة الثقافية، وأنواع أخرى من المعرفة ذات خلفية كل هذا يفيد في عمليات تفسير الكلام. (Ibid., p. 247)

بعض هذه الإشارات الخاصة بالسياق لا نعدم وجودها عند سيبويه وغيره من اللغويين والبلاغيين وعلماء أصول الفقه، وهذا ما يحاول توضيحه كارتر في نصوص كتاب سيبويه.

وقد نجد وعيًا بهذا عند سيبويه حينما يفصل سيبويه دلالات الإعراب في هذه الأمثلة، فيقول: "أما النصب فكأنه بناه على [قوله]: قَدمتُ، [فقال: قَدِمتَ] خير مقدمٍ، [وإن لم يُسمع منه] هذا اللفظ فإن قدومه ورؤيته إياه بمنزلة قوله: قدمتُ، وكذلك إن قيل: قَدِم فلانٌ، وكذلك إذا قال: رأيت فيما يرى النائم كذا وكذا، فتقول خيرًا لنا وشرًا لعدونا. فإذا نصب فعلى الفعل، أما الرفع على أنه مبتدأ أو مبني على مبتدأ، ولم يرد أن يحمله على الفعل..." (سيبويه، الكتاب (ط بولاق) ج1، ص. 136).

يذكر كارتر من خلال هذا التحليل أن التشابه حاصل هنا بين كلام سيبويه وتداوليه جرايس؛ فالمتكلم ليس وحده المشارك في نشاط تعاوني مع متلقي في سياق واقعي؛ وإنما السياق نفسه يمكن أن يصبح المكون النشط في الصيغة النحوية للكلام(Carter, M, G. 2007: P. 30.). ثم ينتقل إلى دور السياق عند سيبويه في تحليله لتركيب النداء، فيذكر كارتر أنه وبالطريقة نفسها يمكن حذف أداة النداء عندما يكون المخاطب واقفًا أمام المتكلم، وهذا ما يشير إليه سيبويه بقوله: "فلحاق الكاف كقولك: يا فلان للرجل حتى يقبل عليك، وتركها كقولك للرجل: أنت تفعل، إذا كان مقبلًا عليك بوجهه منصتًا لك، فتركت يا فلان حين قلت: أنت تفعل؛ استغناءً بإقباله عليك"(سيبويه، ط بولاق، ج1، ص125).

يتكلم كارتر عن تحليل سيبويه لتركيب جملة النداء فيقول: إن سيبويه عرف المنادي في نحو (يا عبد الله) وسيبويه يقول في تحليله هذا: "اعلم أن النداء كل اسم مضاف فيه، فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره". (سيبويه، ط بولاق، ج1، ص303). ويعقب كارتر على كلام سيبويه بقوله: "جعل سيبويه الباب مفتوحًا للآخرين لتقدير هذا الفعل من نحو (أنادي)، وأنه كان مدركًا للنواحي الإنجازية (Performative Aspects) في (يـا) النداء. (Carter, M, G. 2007: P. 410.)

وقد تباينت آراء النحاة بعد سيبويه في تحليلاتهم لجملة النداء، إلا أن ألموج كاشر يرى أن السيرافي على وجه أخص رأى النداء فعلًا كلاميًا، وأن وصف النحاة العرب قادهم إلى تحليله بطريقة غير عادية إلى حد ما. (Kasher, A. 2013: p.145 وانظر تفصيلات أخرى في ترجمة جدامي والشوبري لهذا البحث، 2022، قائمة المراجع العربية)

على أية حال يتضح عند كارتر في تحليلاته لنصوص سيبويه أنه يصلها بعمقها المقامي، وهو جانب تداولي، ولعل ما ذكره كارتر في كلامه عن تحليل سيبويه للغة التعاقدية يضيف شيئًا مهمًا، يقول كارتر إن تحليل سيبويه التداولي مبرهن، ويضع عملية التحول في واقع واقعي يفترض في تحليله جميع مبادئ جرايس، فهو يفرق ما بين معنى الجملة أي الظاهر والمعنى المراد، ويصف الخصائص النحوية للتعبيرات فيما يخص سياقها غير اللغوي، ومقاصد المشاركين في الحوار، ويضرب مثالًا لذلك بنص لسيبويه (Carter, M, G. 2007: P. 32.) يقول فيه: "يجوز أن تقول بعتُ الدار ذراعٌ بدرهم كما جاز ذلك في الشاء، وزعم أنه يقول بعت داري الذراعان بدرهم، وبعتُ البرَّ القفيزان بدرهم"(سيبويه، ط بولاق، ج1، ص197)ويعلق كارتر على النص بقوله: "لقد كان الهدف عند سيبويه تحديد الأهمية الشرعية للخيارات النحوية"(.Carter, M, G. 2007: P. 33).

ويخلص إلى أن سيبويه - ربما انطلاقًا من عبقريته أو بتشجيع من العلماء المسلمين الكبار المحيطين به- قد اختار أن يعالج اللغة بطريقة تجعله يتقارب بشكل واضح مع المقاربة التداولية في العصر الحديث (Ibid., p. 41.). والحقيقة أن كارتر من أكثر المختصين بكتاب سيبويه منذ حصوله في عام 1968م على الدكتوراه بأكسفورد في موضوع: مبادئ سيبويه في التحليل النحوي، وكان له دور كبير في الاهتمام بالدراسات اللغوية العربية في الجامعات البريطانية والأسترالية. وكتابات كارتر عن سيبويه كانت سببًا في اهتمام الكثير من المستعربين بالتراث النحوي العربي.

4. ماروجي Marogy, A.

كتبت ماروجي كتابًا مهمًا بعنوان: (Kitab Sibawayhi, Syntax and Pragmatics)، (النحو والتداولية في كتاب سيبويه)، وكان هذا العمل في أصله رسالة للدكتوراة، قُدمت إلى قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعه كامبردج بإنجلترا(Marogy, A .2010: p. viiii.)، وطُبع في سلسلة: دراسات في اللغات السامية واللسانيات الجزء 56 في Brill في عام 2010م.

تزعم المؤلفة أن كتاب سيبويه يمكن أن يوصف كنموذج لنحو التواصلCommunicative Grammar، وهذا النحو غرضه الأساس كما جاء عند ليتش الربطُ بين التركيب/النحو والتداولية والدلالة، فسيبويه -حسب ماروجي- يجري في كتابه حوارًا طويلًا معنا، ويتطلب في كثير من الأحيان جهدًا عقليًا متواصلًا، ومن المهم أن نعرف أن كل المادة المستعملة في الكتاب لتفسير القواعد النحوية، أو العناصر التداولية، هي مادة واقعية محصلة من كلام العرب (Ibid., p. 29.).

وتخصص الفصل الثاني من عملها تحت عنوان: Complementarity = (التكاملية)، ولذلك سبب؛ فكما تقول يأتي ذلك لإمدادنا بجوانب أعمق وأحدث في الوسائل اللسانية والآليات المستعملة عند سيبويه؛ فسيبويه يمكن أن يكون مناقشًا على أنه واحد من النحاة الذين تمكنوا بنجاح في اكتشاف تعالق ما بين المكونات الشكلية والوظيفية للكلام البشري؛ ومن ثم فهي تجلب اللسانيات الحديثة كوسيط لتوضيح منهج سيبويه في تحليل العربية، فهذا الفصل، كما تشير هي، ليس مقصودًا منه دراسةً مقارنةً بين اللسانيات العربية واللسانيات الحديثة؛ وإنما لأن هناك بعض أوجه الشبه في المنهج متبعة في المنهجية. فالهدف -حسب ماروجي- تحديد مكان تقاطع التفكير اللغوي عند سيبويه مع اللسانيات الحديثة (Ibid., p. 57.).

وتذكر أن منهج ليتش التواصلي في اللغة أثبت أنه أنسب وسيلة لهدفنا، والأسباب ذات شقين:

الأول: أنها تنطوي على تفاعل مثمر بين مستويات التركيب والدلالة والتداولية التي تقوم عليها اللغة.

الثاني: أن هناك معالجة مهمة بأرضية مشتركة في الوصف اللغوي عند ليتش وسيبويه. (Ibid., p. 48.)

تنطلق ماروجي في تصورها من كون كتاب سيبويه يدور حول مفهوم التكاملية Complementarity، المفهوم الذي يقدم إطارًا مثاليًا للنظرات الثاقبة لسيبويه في اللغة، وهي محللة وممنهجة على أحسن وجه. وفي ضوء التكاملية التي توصل الصيغ النحوية بالاستعمال التداولي، يصبح الكتاب مدركًا بسهولة على أنه نحو تواصلي بامتياز، فمع تحليل كل المادة المجمعة، ليس صعبًا جلب مبدأ التكامل في كتاب ليتش 1983، الذي يدعم التحليل اللغوي عند سيبويه (Ibid., p. xiv.).

وتأتي بنصوص لسيبويه مؤكدة لما تزعم، ومنها قول سيبويه: "ألا ترى أنك لو قلت فيها عبد الله حسن السكوت، وكان كلامًا مستقيمًا كما حسن، واستغنى في قولك: هذا عبد الله" (سيبويه، ط بولاق، ج1، ص261)، لتعلق ماروجي فتقول: إن هناك دليلًا واضحًا من هذه النصوص على أن منهج سيبويه تكاملي، إذ يُسلط الضوء على الجوانب البنيوية والدلالية والتداولية للكلام؛ فحُسْن السكوت ملمح تركيبي، والاستغناء ملمح دلالي، كما يفي بالمتطلبات التركيبية والتداولية للكلام القابل للتطبيق (Ibid., p. 51.).

وترى أهمية تعلق الكلام الصحيح بكلام العرب، بمجرد أن نتعلم كيف نقدر الفعالية الاتصالية والثقل الذي يُعطي لها في النموذج اللغوي عند سيبويه، فنموذجية الاتصال تتضمن استراتيجيات تداولية. وتكمل ماروجي فتتكلم عن الفعل التواصلي كحدث، فتقول: إن المظهر التواصلي للغة ليس العامل المحدد الوحيد لبنيتها، وأن المتصور هو أن الوظيفة تقدم ضروريًا أي فعل تواصلي، بمعنى أن هناك حاجة إلى أرضية مشتركة قبل أن يتمكن المرء من الشروع في الفعل التواصلي، وإنتاج الكلام نشاطًا موجهًا نحو الهدف.(Ibid., p. 61)

ومتابعة لليتش، ترى أن قواعد اللباقة واللياقة تكون وفقًا للاستعمال الاجتماعي، ومن ثم فإنها تكمل مبدأ التعاون عندما يفشل في تقديم تفسير تداولي مرضٍ، لتؤكد بعد ذلك أن مبدأ التأدب حاضر ومتضمن في كتاب سيبويه، وضمن التحليل اللغوي له، بفضل أستاذه الخليل، فسيبويه أدرك -حسب ماروجي- الوظيفة الاجتماعية للغة، وتشير في ذلك إلى قول سيبويه: "فإذا ابتدأت فقد وجب عليك مذكور بعد المبتدأ لا بد منه، وإلا فسد الكلام ولم يسغ لك"(سيبويه، ط بولاق، ج1، ص394).

ثم تتكلم عن فهم سيبويه وعنايته بقصد المتكلم وسياق الحال كعوامل محددة، وعناصر قياسية في نظرية الفقه الإسلامي، وتذكر نصًا لسيبويه توضح به ما تزعم، يقول فيه سيبويه: "وذلك أن رجلًا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال أنا عبد الله منطلقًا، وهو زيد منطلقًا كان محالًا، لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية لأن هو وأنا علامتان للمضمر، وإنما يُضمر إذا عُلم أنك قد عرفت من يعني ألا أن رجلًا لو كان خلف الحائط أو في موضع تجهله فيه فقلت من أنت فقال أنا زيد منطلقًا في حاجتك كان حسنًا"(

سيبويه، ج1، ص257.).

وتعلق على هذا النص فتقول إن المسؤولية الأخلاقية واللغوية تقع على المتكلم(Marogy, A. 2010: p. 70.)، وتلفت نظرنا إلى أن سياق الحال مُركز عليه في تحليل سيبويه؛ ذلك أن الكلام تم إنشاؤه لنقل معنى معين، وعندما يحدث حذف يجب أن يكون المعنى المحدد قابلًا للاسترداد من المعلومة غير اللغوية التي تعوض الكلمات المحذوفة، كما هو واضح في نص سيبويه الآتي: "أو رأيت رجلًا يسدد سهمًا قِبل القرطاس، فقلت القرطاسَ، والله أي يصيب القرطاس، وإذا سمعت وقع الهمس في القرطاس، قلت: القرطاسَ، والله أي أصاب القرطاس"(سيبويه، ط بولاق، ج1، ص130).

وبنص آخر يقول فيه: "مرحبًا وأهلًا أي أدركت ذلك، وأصبت، فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه، فكأنه صار بدلًا من رحبت بلادك وأهلت، كما كان الجذر بدلًا من احذر، ويقول الراد: وبك أهلًا وسهلًا، وبك أهلًا فإذا قال بك أهلًا فكأنه قد لفظ بمرحبًا بك وأهلًا" (سيبويه، ط بولاق، ج1، ص149.).

وتعلق ماروجي على نصوص سيبويه قائلة: إنه يوضح فيها أن المعلومة اللغوية والفروق في المعنى مرت من خلال الكلام بشكل عام معتمدة على معلومة غير لغوية، ففي نص سيبويه الأول -حسب ماروجي- يتحدث فيها عن شخصٍ ما يشاهد سهمًا يطلق على هدف أو يسمع صوت إصابة هدف، فيكرر القول مرتين: (القرطاسَ والله)، ومراده مختلف كما وضح سيبويه في نصه أعلاه. هنا لا تساعدنا المفردة المعجمية، ولا النهاية الإعرابية في تفسير المعنى الذي يقصده المتكلم؛ لأننا نتعامل مع بنى متطابقة في كلتا الحالتين، ويعتمد هذا الاستخدام على الافتراض الأساس بأن الجمل المتشابهة لا تنقل دائمًا نفس المعنى، وأن المعاني المختلفة ستؤدي بالتالي إلى آثار مختلفة على المستمع. (Marogy, A. 2010: p. 72.)

أما في النص الثاني فإن سيبويه -حسب ماروجي- يشرع في النظر في أصل (مرحبًا وأهلًا) ويرتبط تحليله ارتباطًا وثيقًا بالمعلومة غير اللغوية أي عندما ترى رجلًا متجهًا إلى مكان ما أو يبحث عن شيء ما فيقترح فكرة أن السياق والاستخدام المتكرر في الكلام لـ(مرحبًا وأهلًا) يجعل الفعل زائدًا عن الحاجة، حيث يمكن استنتاج نية الزائر من السياق والرد عليه (Ibid., p. 72.).

وترى ماروجي أن هناك تشابهًا بين منهج سيبويه في تأثير سياق الكلام ومفهوم لامبرشت (Lambrecht) لعناصر العالم الخارجي للنص (Ibid., p. 72.) التي هي، عنده، خاصية متأصلة في نموذجه الثنائي للعالم الخارجي للنص (Text-External World)، ولا يجب أن تكون مؤسسة من خلال المتكلمين عبر تمثيلات الخطاب؛ وإنما يمكن اعتبارها أمرًا مفروغًا منه بحكم وجودها في محيط الكلام، أو يمكن استردادها منه. ويشار إلى التعبيرات اللغوية، التي تحدد عناصر النص الخارجية، باعتبارها تعبيرات إشارية (Deictic Expression)، وهذه التعبيرات الإشارية تساعد المتكلم في تحديد عناصر العالم الخارجي للنص من خلال الإشارة إليها، وهي تشير -حسب لامبرشت- إلى (Lambrecht, 1994: p. 38):

1- المتكلم والمخاطب (أنا، وأنت ...إلخ).
2- وقت حدث الكلام، والمراحل الزمنية التي تُقاس بالرجوع إليها (الآن، أمس، غدًا،...إلخ).
3- مكان حدث الكلام، والأماكن الواقعية فيها يتعلق به هنا وهناك ... إلخ.

ويرى أن جميع التعبيرات التي لا يكمن فهم معناها يمكن فهمها بالرجوع إلى بعض عناصر العالم الخارجي للنص.

ومن هذا المنطلق، تعلق ماروجي على نصوص سيبويه السالفة الذكر بالقول: إن ملاحظة حدث ما أو سماع صوت مصاحب لعمل معين (أي، العناصر خارج النص) تجعل التمييز في المعنى المقصود ممكنًا، وتوفر أسبابًا لتأكيد أهمية كون بنية اللغة تتوافق مع بنية الواقع المحيط بسياق الكلام. وفي هذا الصدد، تورد نصًا لسيبويه يحدد فيه الوظيفة الدقيقة للعناصر الخارجية للنص، ويُظهر فيه دورها في مساعدة السامع على الاستماع إلى أين يذهب الكلام(Marogy, A. 2010: p. 73.). يقول سيبويه في هذا النص: "هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرًا، ويكون المبني عليه مظهرًا؛ وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت عبد الله وربي كأنك قلت ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله، أو سمعت صوتًا فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت زيد وربي، أو مسست جسدًا، أو شممت ريحًا، فقلت زيد، أو المسك، أو ذقت طعامًا، فقلت العسل، ولو حدثت عن شمائل الرجل فصار آية لك على معرفته لقلت عبد الله كأن رجلًا قال مررت برجلٍ راحمٍ المساكين بارٍ بوالديه، فقلت فلانًا والله"(سيبويه، ط بولاق، ج1، ص279.).

وتتكلم ماروجي عن الاستقامة وعلاقتها بالنحوية (Grammaticality)، وقصد المتكلم، فتذكر أن أي حدث تواصلي ناجح يقاس من خلال ما ينشئه، ومدى تمكينه المستمع من تحديد رسالة المتحدث والمراد بالطريقة الصحيحة، وترى أن الاستقامة عند سيبويه تتضمن الصحة اللغوية، والصلة المعرفية، والملاءمة الاجتماعية، وترى أن نقل المقصود بشكل صحيح وناجح هو مفهوم أساس مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمبدأ التأدب (Politeness) Principle.

وترى أن الفصول السبعة التمهيدية في كتاب سيبويه المعروفة باسم الرسالة، يضع سيبويه، في الفصل السادس منها، فيها معايير تداولية ونحوية ضرورية؛ لقياس القيمة التواصلية للكلام بالعربية، ويقدم الخطوط العريضة لأفعال الكلام التي تنقل المعلومة بنجاح وباستقامة (Marogy, A. 2010: p. 74.).

إن مفهوم الاستقامة -حسب ماروجي- شرط ضروري وكافٍ، ويمكن تعريف الاستقامة كمبدأ تداولي شامل، ويشتمل على مبادئ تداولية، مثل مبدأ التأدب، أو الصواب الاجتماعيSocial Rightness، والوضوح، وعلى الخصوص قابلية المعلوماتية والتواصل، وترى أن مصطلح الاستقامة ليس متعلقًا بالتركيب أو الصحة النحوية، بل مرتبط بوضوح الصحة التداولية والاكتمال الدلالي. كما ترى أن نصوص سيبويه تساعدنا في شرح التفاعل بدقة ما بين الاستقامة (كما عند سيبويه) ومبدأ التأدب كما يُتعامل معه في الكتاب. (Ibid., p. 75.) وتستشهد بنص لسيبويه، يقول فيه: "لا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور، وليس هذا بالذي ينزل به منزلتك في المعرفة". (سيبويه، ط بولاق، ج1، ص22.)

ففي تصور ماروجي، لكي يكون حديثنا مستقيمًا ومناسبًا وواضحًا، يتطلب وجود معرفة مشتركة مع المستمع، حيث ينبغي أن نتحدث عن شيء أو شخص معروف لدى الطرفين أو على الأقل يمكن التعرف عليه من قبلهما. وبهذه الطريقة نحقق مبدأ الأخلاق والصلاح الاجتماعي. ووفق ماروجي- عندما لاحظ سيبويه أنه "ليس من الصواب التحدث مع المستمع عن شيء غير معروف له"، فإنه يشير إلى أن اهتمامه لم يكن نحويًا فقط، بل تداوليًا أيضًا. وعكس ذلك يعني أننا ننتهك مبدأ التأدب، إذا كانت نقطة انطلاق حديثنا غير معروفة للمستمع؛ لأنه (أي، المستمع) يجب أن يكون شريكًا متساويًا في عملية التواصل. (Marogy, A. 2010: p. 76.)

وتذكر ماروجي أن أمثلة سيبويه: (أتيتك أمس)، و(سآتيك غدًا) ليست صحيحة اجتماعيًا ودلاليًا فحسب؛ وإنما هي نحويًا صحيحة أيضًا، في حين أن جملة (سوف أشرب ماء البحر أمس) خاطئة تمامًا؛ لأنها محال وكذب، ولأن تواصل المتكلم يتجاوز أي تحديد. بمعنى آخر، المقصد التواصلي للمتكلم جعلها غامضة، وغير قابلة للتحديد. وتخلص ماروجي إلى أن ما حاوله من تحليل لهذه الأمثلة يخبرنا، بدقة، بتوافق مع المبدأ التواصلي عند جاكوب ماي(Mey, J.)، وذلك أن تجنب الانطباعات الخاطئة/ الكاذبة مبدأ أساس، بغض النظر عن مدى منطقيته وصدق الكلام، لأنه سيفتقد نقطة الاتصال الخاصة إذا تسبب في أي لبس أو عدم يقين. وترى، بغض النظر عن صحة الكلام تركيبيًا والقيمة الإعلامية/ الخبرية، أن خلق انطباعات كاذبة عن الواقع- يحجب النية التواصلية للمتكلم، ويعيق التفسير الصحيح من قبل المستمع. (Ibid., p. 77.)

لم تقف ماروجي عند هذا فحسب؛ بل إنها ترى أن كتاب سيبويه يتميز بكونه عمليًا عبارة عن رسالة تجريبية مفصلة، أو إلى حد ما مليئة بأمثلة مفيدة، والغرض الرئيس منها ليس إبراز الجوانب التركيبية للغة فحسب، بل اختراق عقل المتكلم الأصلي وسياق الحال المحيط الذي أُنتج فيه الكلام أيضًا. وبشكل عام الدافعية والتعاونية يبدوان مرتبطتين معًا وبدقة في سياق الكلام، فحقيقي القول: إن المتكلم يصنع أهدافًا للمحادثة، والسامع ينبغي عليه أن يكون مركزًا في إدراك قصد المتكلم، وفهم المعنى المقصود، وترى أنها مهمة في وصف كيف أن التعاونية والدافعية كانت متضمنة في وصف سيبويه. (Ibid., p. 80-81.)

وترى أن دوافع استخدام النهايات الإعرابية -كما عند سيبويه- ليس تركيبيًا فحسب؛ بل إن هناك اتصالًا حقيقيًا ما بين استعمال النهايات الإعرابية والتداولية، وتستشهد بنص لسيبويه يساعدها في زعمها، يقول فيه: " هذا باب ما يرتفع فيه الخبر لأنه مبنى على مبتدأ، أو ينتصب فيه الخبر لأنه حال لمعروفٍ مبنى على مبتدأ. فأما الرفع فقولك: هذا الرجل منطلق، فالرجل صفه لهذا وهما بمنزلة اسم واحد كأنك قلت هذا منطلق... وأما النصب فقولك: هذا الرجل منطلقًا، جعلتَ الرجل مبنيًا على هذا، وجعلت الخبر حالًا له قد صار كقولك: هذا عبد الله منطلقًا. وإنما يريد في هذا الموضع أن يُذكَر المخاطَب برجلٍ قد عرفه قبل ذلك، وهو في الرفع لا يريد أن يُذكره بأحد، وإنما أشار فقال هذا منطلقٌ، فكأن ما ينتصب من أخبار المعرفة ينتصب على أنه حالٌ مفعول فيها". (سيبويه، ط بولاق، ج1، ص260)

وتعلق على هذا النص فتقول: "أستند إلى أسس متينة في الادعاء بأن تحديد الإعراب واختيار المتحدث بين الإسناد و"الحال" يعتمد إلى حد كبير على دوافع براغماتية؛ أي أن النية التواصلية للمتحدث تلعب دورًا جوهريًا في تحديد الموقع الإعرابي للكلمة " (Marogy, A. 2010: p. 83). وترى أنه يمكن أن نناقش كون الهدف الرئيس للحالة الإعرابية هو، في واقع الأمر، لمساعدة السامع في فهم الاختلاف ما بين الحالتين الإعرابيتين، وقد تباينت المعاني التي قصدها المتكلم منهما، فأما الرفع لـ(منطلق) في قولك (الرجل منطلق)، فصفة له، وأما النصب في "هذا الرجل منطلقًا"، فجعلت الخبر حالًا له.

وتخلص في نهاية الفصل إلى عدد من النتائج المهمة، منها أنه أصبح واضحًا أن سيبويه وليتش (Leech, G.) كلاهما متفق في أن مبدأ التكامل ليس عملية في المستوى التركيبي والتداولي فحسب؛ بل، أيضًا، على مستوى التداوليات، وهذا ما تؤكده النظرة التكاملية للغة والمنهج الشامل للظاهرة اللغوية عند سيبويه التي لم تطبق في مستوى التصنيف الشامل للكلام فحسب؛ بل على مستوى أساس من مكوناته. (Ibid., p. 94.)

كما تخلص في الفصل الأخير من كتابها، وهو نتائج البحث، إلى "أن مكانة سيبويه ليست فذة داخل اللسانيات العربية فحسب؛ بل ربما لم يسبق له مثيل في تاريخ اللسانيات ككل".... "وقد أصبح واضحًا أن إحدى النتائج الطبيعية للعناصر التي نوقشت، تظهر، بوضوح، أصالة إنجازات سيبويه اللغوية في النقلة التي أحدثها الكتاب من التركيز على مجرد التفسير [اللغوي] إلى اللسانيات الخالصة". (Ibid., p. 205.)

يتضح، بجلاء، من دراسة ماروجي تأكيد تداولية تحليل سيبويه؛ وذلك في عقد المقارنات مع البحث التداولي البريطاني، وبخاصة تداولية ليتش الذي وجدت في أطروحاته المنهج التكاملي الملائم لقراءة جهود سيبويه، والوصول إلى النتائج التي عرضناها هنا.

كما أن هناك أثرًا واضحًا لأستاذها (مايكل كارتر) الذي شكرته في مقدمة كتابها، وتقول أستاذي الأول الرئيس، وهو أستاذي بالمعنى الكامل للكلمة

(Ibid., p. viiii.)، وكارتر من أولئك المستعربين الذين يرفعون من قدر سيبويه، كما أنه يرى عناصر كثيرة في تحليل سيبويه تتشابه مع التداوليين، وعرضنا ذلك في الصفحات السابقة.

وتبين من عرض مجموعة من الدراسات المنشورة في أوروبا أنهم يحللون كتاب سيبويه في ضوء التلفظية ثم التداولية واجدين تشابهًا ما بين التداولية الحديثة ومنهج سيبويه، وهناك دراسات أخرى تناولت سيبويه ضمن النحاة العرب الذين لديهم تحليلات شبيهة بالتداوليين، ومن ذلك ما سنوضحه في المبحث الموالي.

5. سيبويه والتداولية الحديثة

يقرر فريستيخ في بحثه (2004)، وهو عن معنى الكلام، أن اهتمام سيبويه لم يكن لتوضيح النص؛ وإنما لشرح البنية اللغوية، فطرق تحليله، وتحديد الاتجاه العام للتعاليم النحوية العربية من وقته فصاعدًا، أصبح الهدف الرئيس للنحاة تفسير الصيغة السطحية للغة وبخاصة النهايات الإعرابية، وهذا ليس للقول بأن سيبويه لم يكن مدركًا للوظيفة التواصلية للغة؛ ففي كثير من الحالات يفسر الاختلاف بين الأقوال من خلال الإشارة إلى السياق ما فوق اللغوي، وتوقعات المستمعين، واستعماله لمصطلح يدل على كلٍ من المعنى الخاص بفئة العناصر اللغوية، وقصد المتكلم(Versteegh, K..273 .2004: p.).

ونجد ألموج كاشر (Kasher, A.) في بحثه (2013)، عن *النداء بوصفه "فعلًا كلاميًا" في التراث النحوي العربي المبكر*، يذكر في خاتمة بحثه أن النداء عند النحاة العرب القدامى يقدم بتحدٍ كبير؛ بسبب أنه تفسير مطرد لحالة النصب، بتقدير فعل محذوف من شأنه أن يجعل النداء -فعلًا كلاميًا، وهذا التعاقب من شأنه أن يشكّل انتهاكًا للمبدأ المصرح به بأن إعادة تأويل البنية العميقة ينبغي ألا يغير معنى. ويرى أن بعض النحاة العرب الأوائل، وبخاصة السيرافي في شرحه لكتاب سيبويه، وعلى نحو لافت للنظر، اقترح تفسيرًا للنصب في تركيب النداء يختلف دلاليًا عن التفسيرات التقليدية للإعراب في الفكر النحوي العربي في القرون الوسطى(ينظر لمزيد تفصيل Kasher, A. 2013, p. 156).

من هذا كله نجد نفسية متفتحة تتناول تراث سيبويه والنحاة العرب، مقارنة إياه باللسانيات الحديثة، لتوضحه، ولتجد فيه بعض التشابهات. وفي أعمالهم هذه يسعون إلى فهم أفضل للغة الإنسانية، ولمحاولة فهم التراث اللغوي الإنساني، ومن ثم تبقى لمقارباتهم سمتها الخاص، وتجلياتها الواعدة، التي يجب عرضها ومناقشتها بوعي وفهم عميق.

6. مناقشة

أولًا: نبدأ بمناقشة موضوع شرعية مقارنة التراث: أي تراث بالدراسات اللسانية الحديثة؟ وسنعرض هنا تصور بعض المستعربين لبيان شرعية مثل هذه المقارنات ومدى حدودها. وقد كتب فرستيخ بحثًا تحت عنوان: دراسة التعاليم اللغوية غير الغربية. أكد فرستيخ فيه أن الهدف النهائي للمقارنة ما بين التعاليم اللغوية الموروثة غير الأوروبية والدراسات اللسانية الغربية هو توضيح وجود أساس كلي متضمن، على الرغم من وجود الاختلافات بينها. (Versteegh, K. 2006, p. 2797)

ويذكر فرستيخ أن المثال الجيد لكيفية المقارنة التي يمكن أن تنفذ بمعرفة واضحة للمزالق والأخطاء، في بحث أوينز (1988) الذي قارن النظريات التركيبية في النحو العربي مع تلك النظريات اللغوية الحديثة، وخاصة النظرية التوليدية، وكذلك بواس وجيوم في بحثهما (1984) اللذين طبقا الجوانب الحديثة في علم الأصوات على نصوص نحوية عربية، تعالج البنية الصوتية والصرفية في العربية. ويرى فرستيخ أن تحليلاتهم تسترجع المعنى العلمي لهذه النصوص (النصوص العربية)، وتوضح ما هو كامن من وراء التحليل. (Ibid., p. 2797.)

ويذكر فرستيخ، أيضًا، أن المنهج المقارن بحد ذاته، أي مقارنة التعاليم غير الغربية بالدراسات اللسانية الحديثة شرعي (Legitimate)، ويمكن أن نصل، من خلال ذلك، إلى معرفة الاختلافات فيما بينهما، وتحرير التعاليم غير الغربية من قفصها المصطنع من الغرابة، كما أنه بدون شك سيكون من غير المناسب قراءة معالجات لغوية ما قبل القرن التاسع عشر بطريقة آلية بعيون حديثة. فمعظم الجهود المبذولة لدراسة النحاة المشهورين غير الغربيين: أمثال بانيني (الهندي)، وسيبويه ومقارنتهم بالمدارس اللغوية المتنوعة مثل: النحو الوظيفي، والنحو التوليدي، تعاني من نقص من التبصر في الافتراضات الأساسية للتعاليم المعينة، ومن ثم فهي أكثر تشويشًا منها للتوضيح. (Ibid., p. 2797.)

فالمقارنة مشروعة بين الدرسين القديم والحديث، ولكن بشروط الجد والوعي بالدرسين، فالهدف النهائي من المقارنة إظهار وجود أساس كلي ضمني بين الاثنين (القديم والحديث)، على الرغم من الاختلافات التي بينهما، فمهمة الباحث هنا تكمن في كشف التباينات التي قد تحجب هذا الأساس المشترك بين الدرسين، كما أن الخروج من حدود أي درس لغوي يمكننا أن نأمل بمعرفة ما يميز الأساليب المختلفة في دراسة اللغة. (Ibid., p. 2797.)

ومن ثم ما كان منظورًا إليه على أن المقارنة بين التراث العربي واللسانيات الحديثة عمل غير مشروع (وهي رؤية معروفة عند عدد من اللسانيين العرب)، الآن أصبح مشروعًا، هو وغيره من التعاليم اللغوية غير الغربية. وبالإضافة إلى ما ذكره فرستيخ، ربما تكون قراءة أي تراث لغوي في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة تكشف وتوضح أبعاده ومناهجه، هذا بشرط عدم الإسقاط، وتوفر أيديولوجية سليمة.

ثانيًا: نناقش هنا زعم بعضهم أن الأثر الأرسطي في الدرس النحوي العربي عند المتأخرين كان قويًا، وأثّر ذلك في كونه أكثر تداولية من أعمال النحاة

الأوائل، تجد هذا عند عدد من المستعربين، لعل أولهم الفرنسي لارشي الذي يذكر أن مقولة الإنشاء ذات أصل فقهي، وظهرت في مرحلة متأخرة؛ فلم تظهر قبل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ووجودها يدل على ابتكار دلالات جديدة ومهمة، وتفسر بكونها كلامًا إنجازيًا. (Larcher, P. 1990: p. 198)

وبعد تحليله لمقولة الإنشاء عند رضي الدين الاستراباذي، يذهب إلى أن الاستراباذي يجري بين تقليدين أحدهما أجنبي، ويذكر أنه لا يؤمن بالصدفة عندما يجتمع بين درسين مختلفين توأم من الموضوعات، كما هو في فئتي الإنشاء والإنجاز (Performative) دون أن نكون قادرين على ربط علاقتهما بسلف مشترك، وحتى على الأقل في شرح التأثيرات التي خضعت لها. ويبدو من المشروع رؤية، أن فئة الإنشاء ليست متعددة التخصصات فحسب؛ بل جاءت عبر تعدد في المناهج، وبمظهر تداولي، عبرت إلى علم اللسانيات في العالم الإسلامي.(Larcher, p. 1992: p. 18)

ويذهب فرستيخ أبعد من ذلك، فيذكر أنه، على العموم، بدأ النحاة العرب، وكأنهم ليس لديهم اهتمام خاص بتحليل أفعال الكلام، أما بعد اقتراضهم التعريف المنطقي للخبر/ القضية (Proposition)، أشاروا ببساطة إليه في بداية معالجتهم، ولم يعلقوا حتى على الفرق بين القضية كخبر، والخبر كإسناد، ويؤكد أن الأصوليين والبلاغيين والنحاة المتأخرين هم من لديهم الفكر التداولي. ويرى أن تقسيمات النحاة العرب لأنواع الكلام هي المسؤولة جزئيًا عن استبعاد هذا المجال من الفكر اللغوي العربي على الأقل حتى القرون الأربعة الأولى من الهجرة (.Versteegh, K. 2004: p. 279- 280). ونتصور أن التداولية في تراثنا العربي تتجلى في شكلين واضحين، الأول ما كان لدى سيبويه والمتقدمين من علماء العربية، والثاني يتجلى عند المتأخرين، وربما يكون أكثر وضوحًا، وقد توسع لارشي في شرحها، وأشار إليها بإعجاب في بحوثه. (انظر: Larcher.1992)

والرؤية نفسها، نجدها عند كارتر الذي يذكر ما مفاده أنه دخل البنية المنهجية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، مفهوم مستعار من منطق أرسطو، مفاده أن العلم يجب أن يبنى بشكل منطقي، وأنه قد كان هناك، ولحوالي قرن ونصف القرن، قدر كبير من التجريب قبل أن تصل العلوم إلى النقطة التي يمكن عندها تعريفها وتصريفها، لا سيما في أعمال من مثل مفتاح العلوم للخوارزمي، ومع حلول نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أصبح لدينا نظام أكثر تعقيدًا، وكان علامة فارقة لذلك القرن(كارتر، ترجمة الحريص، 2017، ص397- 398، والأصل الإنجليزي، 2007، 11-10.p).

ويذكر كارتر، في موضع آخر من بحثه، أن التزاوج الذي حصل بين المنطق الأرسطي أدى إلى ميلاد نسخة جديدة أكثر وعيًا وتنظيمًا للموقف نفسه في علم الفقه، وقد بلغت تلك الأفكار أوج تطورها في أعمال القرن السابع الهجري، ويعزز كلامه بتأكيده على أن مصطلح (قانون) شاع وكثر دورانه في القرن الرابع الهجري، ولم يكن كذلك في القرون السابقة عند العلماء العرب. وفي رأيه، أن هذا المصطلح، الذي عَزَّز وجود قانون منظم للسلوك على غرار نظام الأخلاق اليونانية، كان فكرة محبذة وممكنة. "ومنذ نقطة التحول تلك، أصبح علم أصول الفقه، كما هو الحال مع علم النحو، يقدم تفوقًا يثير الإعجاب، ليس على مستوى استيعاب الكم الضخم من النصوص الإسلامية التاريخية فحسب؛ بل على مستوى مناهج البحث المنطقي والمناظرات الجدلية"(السابق، ص409، والأصل،41 .p).

وفي ردنا على هذه المزاعم، نقول: إن كثيرًا من جوانب تصورات لارشي وفرستيخ وكارتر يحتاج إلى مراجعة تقوم على فحص تراث النحاة الأوائل بشكل عميق؛ فزعم لارشي- وهو أول من بدأ هذه المزاعم- مرتبط لديه بفكرة أن الإنشاء مقولة لغوية متأخرة، فلم تظهر إلا في القرن السابع الهجري بصيغة مكتملة ومقابلة للخبر، وهذه نقطة خلاف مع الذين يؤرخون للإنشاء في التراث العربي، فهناك من يرى أن لارشي قد حاد عن الصواب؛ ذلك أنه لم يربط مفهوم الإنشاء بأصوله وجذوره المنغرسة في النظرية النحوية العربية التي اكتملت أسسها -حسب خالد ميلاد- منذ ظهور كتاب سيبويه، وتبلورت مكوناتها وما تنبني عليه منذ القرن الثالث انطلاقًا ممًا اشتمل عليه الكتاب من أصول النحو وأحكامه ومعانيه. كما أنه "لم يفطن إلى أن النظرية العربية اللغوية نظرية تنبني على أن فعل اللسان هو للإخبار وللإنشاء، وأن النحو هو الذي جعل فعل اللسان إنشاءً نحوًا". (ميلاد، 2001، ص47.)

والحقيقة أن الإنشاء مقولة متجذرة في التراث النحوي، ومعنى منغرس في الأساس النحوي، يتخصص في الأقاويل المنجزة، أو كما خلص خالد ميلاد إلى أن الإنشاء "عمل إعرابي يحدثه المتكلم الواضع في البنية المجردة للجهاز النظري، وينجز المتكلم المعرب بواسطته أثره في الكون، إذ يعرب عن إرادته وانفعالاته ومقاصده إلى تصريف العمل الإعرابي عملًا لغويًا إنشائيًا...". (السابق، ص617.)

ومن ثم، فإنه، على الرغم من عدم ذكر النحاة الأوائل للتقسيم: خبر/ إنشاء، إلا أنه موجود ضمنيًا في أعمالهم، وبخاصة في دراساتهم للاستفهام والأمر والتمني والنداء، ولننظر إلى قول الفراء في معانيه: "جعل تطويل الألف فرقًا بين الاستفهام والخبر"(الفراء، ج2، ص345.)، وقد ربط سيبويه بين الأساليب الإنشائية بكشفه عن القاسم المشترك بينها، الذي يمثل في أنها غير واجبة، أي أنها غير واقعي". (انظر تفاصيل أكثر في هنوش 2016، ص257- 260.)

وهذا الكلام ينفي أن تداولية مقولة الإنشاء، التي ظهرت متأخرًا في التراث العربي، أساسها منطق قادم من اليونان، وهذا ما يدعيه فرستيخ حين يزعم أنه يمكن أن يخلص إلى أن النحاة العرب في دراساتهم النحوية لم يتركوا مجالًا كبيرًا لتحليل أقسام الكلام، غير أنه بعد القرن الثالث الهجري أدرك النحاة العرب بوضوح التعاليم المنطقية التي ميزت بين الإخبار والأنواع غير الخبرية من الكلام. (.Versteegh, K. 2004: p. 278)

وكان لا بد من الرجوع إلى النحاة الأوائل لفهم شروحاتهم كما فعل خالد ميلاد، وخلص إلى فهم لم يدركه لارشي أو فرستيخ، غير أن لارشي في بحث

آخر يقول الإنشاء جذوره في الفقه، فأصوله شرعية مثبتة، وقد شهد الإنشاء- حسب زعم لارشي - توسعًا في النطاق نحو الطلب في أصول الفقه (Larcher, p., 359. :p. 2007).

غير أننا لا ننكر أن التراث اليوناني قد أثّر في الدراسات اللغوية الغربية وغيرها، وفي تراثنا منذ القرن الرابع الهجري، وهذا واضح في كثير من الأمور، فما نعترض عليه، هو عدم الوعي بتاريخ مقولة الإنشاء عند النحاة الأوائل، وما يزيد من قوة نقدنا هو ما سيوضح في النقطة التالية.

عندما قارن كارتر أفكار سيبويه بالتداولية الحديثة أكد وجود تشابه بينهما، إلا أنه وصفه بقوله: "كانت تلك الأفكار وليدة عند سيبويه، لكن التزاوج الذي حصل بين المنطق الأرسطي والدراسات اللغوية العربية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أدى إلى ميلاد نسخة أكثر وعيًا وتنظيمًا..."(كارتر، ترجمة الحريص، ص409، والأصل،p.41.). ونجد عند تلميذته ماروجي أفكار سيبويه وتحليلاته متشابهة لما عند ليتش، فهي - كما عرضنا آنفًا- تذكر أنها أتيت بمنهج ليتش التواصلي في اللغة، لأنه أنسب وسيلة لهدفها، والأسباب – في نظرها- ذات شقين:

الأول: أنها تنطوي على تفاعل مثمر ما بين مستويات التركيب والدلالة والتداولية التي تقوم عليها اللغة.

الثاني: هناك معالجة كبيرة بأرضية مشتركة ما بين الوصف اللغوي لليتش وسيبويه (Marogy, A. 2010: p ..48). وهذان الشقان أساسهما أنها ترى أن سيبويه يعالج الظاهرة النحوية، ويبني نحوه على أسس تكاملية من النحو والتداولية، وعنده قبول أي كلام معطى نتيجة لتفاعل العوامل التداولية والتركيبية، فهو- حسبها- يرى أن إهمال التداولية سوف يعيق أي تأثير في حضور تفسير مرضٍ للغة والسلوك اللغوي ومتكلميه (Ibid., p. 57.).

فهل ما رأته ماروجي من أرضية مشتركة بين ليتش وسيبويه كلام مشكوك فيه، أم أن دراستها كانت أعمق، وكانت مخصصة في تحليل كتاب سيبويه تركيبًا وتداولية، وما توصلت إليه ربما يكون ردًا على مزاعم كثيرة قيلت دون الرجوع إلى النصوص النحوية المنتمية إلى الحقبة الأولى من النحو العربي.

ثالثًا: نقول، بعد عرض آراء باحثين مؤسسين في اللسانيات الحديثة وتحليلها، وبحوثهم منشورة في أعرق الجامعات الغربية، إن هذه البحوث تزعم وبقوة وجود فكر تداولي في التراث العربي، فكيف نستثمر هذا في التأريخ للتداولية؟

في الواقع نحن أمام أكثر من تصور بتاريخ التداولية، فهناك من يرى عدم وجود تاريخ للتداولية، تقول بلينزكي في بحثها المعنون: أهناك تاريخ للتداولية؟: إن التداولية عمومًا ما زال ينظر لها على أنها موضوع وُلد حديثًا، وليس له تاريخ يُتباهى به، وتفترض أن نظريات اللغة الجديدة ربما لها جذور في الماضي. غير أن هذا الاستحقاق في التداولية ربما يكون جزئيًا، وبجذور فلسفية (Biletzki, B. 1996: p. 455). وتخلص في نتائج البحث إلى أن التداولية غائبة في نصوص الماضي، ويجب علينا محاولة تفسير هذا النقص في تلك النصوص، وربما كانت الحاجة إلى أدوات تداولية سببًا لثغرات وأوجه قصور لاحظناها في القرون السابقة. وفي النهاية تذكر في إجابتها عن السؤال الذي عنونت به بحثها: أهناك تاريخ للتداولية؟ لتجيب، بعد أن دافعت عن وجهة نظرها، بعدم وجود هذا التاريخ، وتسأل سؤالًا مختلفًا، وحسب وصفها أكثر إزعاجًا، وهو لماذا لا يوجد تاريخ حقيقي للتداولية (Ibid., p. 468.).

أما نرليش وكلارك فيريان أن هناك ثلاث طبقات كبرى للفكر التداولي، التي يمكن أن نستخدمها بوصفها آثاراً في الفكر التداولي، وهذه الطبقات تمثل أرضية علمية للتداولية التي هي نفسها مختلطة - حسبهما- من أربعة عناصر نظرية الفعل الكلامي، (الأنجلو أمريكية) في أصلها ونظرية التلفظية الفرنسية، والتداولية العامة الألمانية، وكجزء من علم العلامات الأنجلو- الأمريكي في أصلها، وتدريجيًا اختلطت العناصر الأربعة معًا، ودُمجت تقريبًا وبدقة مع علم الإدراك من ناحية، والدراسة الاجتماعية للتواصل من ناحية أخرى(Nerich, B. & Clarke, D. 1966: p. 12).

وتزعم نرليش وكلارك أن تاريخ التداولية يبدأ من جذور التداولية، أو التداولية الأم (Protopragmatic)، من 1785 إلى 1835 م، في أوروبا وتُبع بمرحلة من التحول من 1835 إلى 1880 م، وخلال تلك الفترة دخلت جذور التداولية للأسفل، والنفعية الأمريكية أتت للسطح من 1860 إلى 1930 م، ثم جاءت تداولية ما قبل التمام من 1880 إلى 1935م في أوروبا المتبوعة بمرحلة من التحول من 1940 إلى 1970 م، التي قادت نحو التداولية الحديثة(Ibid., p. 13). وهذا معناه أن التداولية تبدأ جذورها، في أوروبا وأمريكا، من القرن الثامن عشر الميلادي.

أما جاكوب ماي، فتصوره لتاريخ التداولية أبعد من ذلك؛ ذلك أنه يرى التداولية تخصص لغوي صغير العمر، ولكن له ماضٍ موقر، فعلى طول الطريق من السفسطائيين حتى القرون الوسطى والمفكرين التداوليين في القرن التاسع عشر حتى أعمال اليوم، في مختلف التخصصات اللغوية والاجتماعية والنفسية والبحث الأدبي وفروع أخرى من العلوم الإنسانية، وهناك خط يتم رسمه بربط هذه الاتجاهات، ويتقارب مع الاهتمام المعاصر بالتداولية كعلم السلوك الاجتماعي اللغوي في مختلف الظروف. ويجد ماي في بحثه: مخطط مختصر للتطور التاريخي للتداولية. الأصول المبكرة للفكر التداولي عند السوفسطائيين، وعند البلاغيين قديمًا، وكذلك عند الفلاسفة الغربيين في العصور الوسطى. (Mey, J. 2001: p..622)

هذا التصور، ربما، يتناسب مع ما رآه لارشي وكارتر وبواز وزميلاه وماروجي؛ ذلك أنه يرى أن فكرًا تداوليًا كان ممارسًا في نصوص تنتمي إلى القرون القديمة على عكس التصورات الأخرى.

ونتصور أن التداولية الحديثة تبقي بمظهرها حديثة، لكن لكل علمٍ ما تاريخ يشمل الأفكار والفرضيات التي تشكّله، فهناك جذور ربما شاركت في تأسيس هذا التخصص العلمي. والواضح للعيان أن هناك إشارات مهمة للمستعربين ذُكرنا بعضها هنا، تفيد بكل حياد وجود مفاهيم مهمة ممكن أن تكون متشابهة مع التداولية الحديثة.

رابعًا: ويبقى تساؤل أخير: هل التداولية الحديثة ممثلة في تراثنا تمامًا؟ وهل هؤلاء الباحثون يدعون ذلك؟ نقول في جواب ذلك: إنّ ما عرضوه في أبحاثهم كان لأهداف مهمة، ومن أهمها، محاولة قراءة التراث اللغوي العربي في ضوء اللسانيات الحديثة لفهم التراث، ومعرفة أبعاده المعرفية، وهذا مفيد كما ذكر فرستيخ في بحثه المهم حول هذا الأمر، وعرضنا تصوره في الصفحات السابقة، وهو تصور وضّح أن قراءة التراث اللغوي بمقارنته باللسانيات الحديثة لأسباب عديدة، ومن ثم يأتي عرضنا لهذه الآراء؛ لدعم التوجه الذي يرى أن التراث اللغوي العربي فصل مهم من تاريخ الفكر اللغوي العالمي، وعلينا أن نتحلى بالمفاهيم الحديثة في قراءته وتحليله؛ لأنها تكشف جوانب مهمة ربما لا تتأتى بغيرها.

النتائج

لقد اتضح لنا، من خلال عرض تحليلات المستعربين لكتاب سيبويه، أن نظرتهم للتراث اللغوي العربي فصل مهم من تاريخ الفكر اللغوي العالمي، وأن اللسانيات الحديثة مهمة في فهم كثير من جوانب التراث العربي، كما اتضح لنا أن دراسات المستعربين جاءت دون تعمد لإسقاط النظريات الحديثة على التراث العربي، وهي، في المجمل، موضوعية وبعيدة عن أية أيدولوجيا.

وقد تبين لنا أن جيلًا جديدًا من المستعربين، ربما بدأ مع سبعينيات القرن العشرين، مختلف كثيرًا عن الأجيال الأولى من المستعربين في جوانب عديدة، منها تمكن الكثير منهم من اللسانيات الحديثة، وتمكنهم من فهم التراث العربي بعيدًا عن أية أيدولوجية مغرضة كما ذكرنا.

ويتضح من مقارباتهم أن لدى سيبويه مفاهيم وتحليلات تؤكد وعيه بأهمية السياق في التحليل اللغوي، ففي مقاربة كارتر، على سبيل المثال، وجدناه يقارن بين مفاهيم سيبويه ومفاهيم جرايس التداولية، وفيها أكد أن المتكلم عند سيبويه ليس وحده المشارك في نشاط تعاوني مع متلقٍ في سياق واقعي، وإنما السياق نفسه يمكن أن يصبح المكون النشط في الصيغة النحوية للكلام.

وانتهت ماروجي إلى أنه، في ضوء المقاربة التكاملية عند ليتش ومقارنتها بتحليلات سيبويه، يصبح نحو سيبويه مفهومًا بسهولة على أنه نحو تواصلي يعلي من شأن المعنى في الاستعمال، ويدلل على تداولية تحليلات سيبويه النحوية، ويؤكد، في الوقت نفسه، على أصالة إنجازات سيبويه اللغوية.

وختامًا، إن هذه الدراسات، وهي تعلي من قيمة التراث اللغوي العربي، تؤكد أن اللسانيات الحديثة مهمة في فهمه، والكشف عن سبقه وريادته.

شكر:

The Researchers would like to thank the Deanship of Graduate Studies and Scientific Research at Qassim University for financial support (QU-APC-2025)

المصادر والمراجع

سيبويه، أ. (1316-1317). *الكتاب*. (ط1). مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق.

الفراء: أ. (1980). معاني القرآن. (ط 2). بيروت: عالم الكتب

كارتر، م. (2017). مايكل كارتر وجهوده في درس النظرية النحوية التراثية مع ترجمة بحثه: التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية. *مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها*، *19*، 371– 432 .

كاشر، أ. (2022). النداء بوصفه (فعلًا كلاميًا) في التراث النحوي العربي المبكر. . *مجلة أوراق لسانية*، *2*(6)، 275- 295 .

لارشي، ب. (2012). تداولية قبل التداولية هي تداولية قروسطية عربية وإسلامية. *إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، ج1*. (ص ص. 499-518). منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، قرطاج.

المتوكل، أ. (2006). *المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد*. (ط1). الرباط: مكتبه دار الأمان.

ميلاد، خ. (2001). *الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية*. تونس: المؤسسة العربية للتوزيع.

هنوش، ع. (2016). *التأسيس اللغوي للبلاغة العربية، قراءة في الجذور*. الأردن: دار كنوز المعرفة.

References

Sībawayh, A. (1899). Al-Kitāb, (1st ed.). Egypt: Al-Maṭba‘ah al-Kubrá al-Amīrīyah bbwlāq.

Al-Farrā’, Y. (1980). Ma‘ānī al-Qur’ān. taḥqīq Muḥammad ‘alá al-Najjār. (2nd ed.). Beirut: ‘Ālam al-Kutub.

Carter, M. (2017). Māykil Carter wa-juhūduhu fī dars al-naẓarīyah al-naḥwīyah al-turāthīyah ma‘a tarjamat baḥathahu: Al-

Tadāwulīyah wa-al-lughah al-ta‘āqudīyah fī al-bidāyāt al-ūlá lil-naḥw al-‘Arabī wa-al-naẓarīyah al-fiqhīyah. *Majallat Jāmi‘at Umm al-Qurá li-‘Ulūm al-lughāt wa-ādābihā*, 19, 371 – 432.

Kāshir, U. (2022). Al-nidā’ bi-waṣfihi (f‘lan klāmyan) fī al-Turāth al-Naḥwī al-‘Arabī al-mubakkir. *Majallat Awrāq lisānīyah*, 2(6), 275-295.

-lārshy, B. (2012). tadāwulīyah qabla al-Tadāwulīyah hiya tadāwulīyah qrwsṭyh ‘Arabīyah wa-Islāmīyah. fī ‘Izz al-Majdūb (muḥarrir.). Iṭlālāt ‘alá al-naẓarīyāt al-lisānīyah wa-al-dalālīyah fī al-niṣf al-Thānī min al-qarn al-‘ishrīn, j1. (Ṣ Ṣ. 499-518). Manshūrāt al-Majma‘ al-Tūnisī lil-‘Ulūm wa-al-Ādāb wa-al-Funūn Bayt al-Ḥikmah, Qarṭāj.

Al-Mutawakkil, U. (2006). *Al-Manḥá al-waẓīfī fī al-Fikr al-lughawī al-‘Arabī, al-uṣūl wa-al-imtidād.* (1st ed.). Alrabat: Maktabah Dār al-Amān.

Mīlād, Kh. (2001). *Al-inshā’ fī al-‘Arabīyah bayna al-tarkīb wa-al-dalālah, dirāsah naḥwīyah tadāwulīyah*. Tunisia: Al-Mu’assasah al-‘Arabīyah lil-Tawzī‘, Tūnis.

Hannūsh, ‘A. (2016). *Al-ta’sīs al-lughawī lil-balāghah al-‘Arabīyah, qirā’ah fī al-judhūr*. Jordan: Dār Kunūz al-Ma‘rifah, ‘amān.

Auer,P. (1992). *Introduction*. In Auer, p. and Diluizio, A. (eds). *The Contextualization of Language*. John Benjamins.

Biletzki, B. (1996). Is there a history of pragmatic? *Journal of pragmatics* 25, 455-470.

Bohas, G, Guillaume, J, P. & Kouloughli, DE. (1990). *The Arabic Linguistic Tradition*. London, New York: Routledge.

Carter, G, M. (1973). An Arab Grammarian of the Eighth Century AD. A Contribution to the History of Linguistics. *Journal of the American Oriental Society*, 93(2), 146–157.

Carter, G, M. (2007). Pragmatics and Contractual Language in Early Arabic Grammar and Legal Theory, in E. Ditters and H. Motzki (eds.). *Approaches to Arabic Linguistics. Presented to Kees Versteegh on The Occasion of His Sixtieth Birthda*y, Leiden and Boston: Brill, 25–44.

Cutting, J. (2002). *Pragmatics and Discourse*. London, New York: Routledge.

Gumperz, J. (1992). Contextualion and Understanding. In Peter Auer & Aldo Di Luzio (eds.), *The Contextualization of language.* Philadelphia: John Benjamins, pp. 177-198.

Kasher, A. (2013). The Vocative as a “Speech Act” in Early Arabic Grammatical Tradition. *Histoire Épistémologie Langage*, *35*(1), 143–159.

Larcher, P. (1990). Eléments pragmatiques dans la théorie grammaticale arabe post-classique, in K. Versteegh e M.G. Carter (eds.), *Studies in the History of Arabic Grammar II: Proceedings on the 2nd Symposium on the History of Arabic Grammar*, Nijmegen, 27 April-1 May, 1987, John Benjamins, Amsterdam, pp. 195-214. Larcher, P. (1992a). Quand, En Arabe, On Parlait De L'Arabe... (Iii) Grammaire, Logique, Rhetorique Dans L'Islam Postclassique. *Arabica*, *39*(3), 358-384. https://doi.org/10.1163/157005892X00067

Larcher, P. (1992b). La Particule Lakinna vue par un Grammairien Arabe du XIIIe Siècle: Ou Comment Une Description de Détail S'inscrit Dans Une Théorie Pragmatique'. *Historiographia Linguistica*, 19(1), 1-24.

Larcher, P. (1998). Une pragmatique avant la pragmatique: «médiévale », « arabe » et « islamique »”, *Histoire Épistémologie Langage*, 20(1), 101-116.

Larcher, P. (2007). ’Inšā’, *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*. Brill: Leiden.

Lambrecht, K. (1994). *Information Structure and Sentence form, Topic, Focus and the Mental Representation of Discourse Referents*. Cambridge University Press.

Marogy, A. (2010). *Kitab Sibawayhi, Syntax and Pragmatics*. Leiden, Boston: Brill.

Mey, J .(2001). Mey, J. L. (2001). *Pragmatics: An introduction*. Blackwell Publishing: Oxford.

Searle, J. R. (1969). *Speech acts: An essay in the philosophy of language*. Cambridge: Cambridge University Press

Versteegh, K. (2004). *Meanings of Speech*. In Dichy, J. and Hamzė, H. (eds): *Le voyage et la language. Damasucs: Institut Francais du proche-Orient*, pp. 269-287.

Versteegh, K. (2006). The study of non-Western linguistic traditions. Berlin, New York: De Gruyter Mouton.